مُعالمُ شرعيةٌ

في الصراعات الأوروبية

الحمد للّٰه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

نحاول هنا وضع بعض المعالم الشرعية في هذا الحدث الضخم (حرب روسيا وأوكرانيا).

الأول: اليقين بالقضاء والقدر:

فـلا يقضي اللـه - تبارك وتعالى - قضـاء إلا بعلم وحكمـة؛ فعلى المسـلم أن يحققَ الإيمـان بالقضاء والقدر، وأن يستثمرها، ويستلهم العِظَة والعبرة منها.

الثاني: سُنة التدافع:

وهي سـنة كونية ثابتة مَوَّارة ﴿وَلَـوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَلَـوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَـرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُـرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، تدافُـعٌ بين الخير والشر بمختلف مستوياتهما، أو بين شرَّين أحدهما أطغى من الآخر.

وفي السياسـة الشرعية يقدَّم الأقل شراً وضرراً، كتقديم المشرك على الملحد والكتابي على المشرك، وكجهـاد الكفار تحت راية أمراء الجَور والفسـق إذا لم يوجد خيرٌ منهم، وقد مدح شـيخ الإسـلام طوائـف مـن المبتدعـة في الصفـات كالكلابية والكراميـة والأشـعرية، في جانـب تصديهم لمن

هم أســوأ، كالمعتزلة والرافضة واليهود والنصارى والزنادقة والملحدين.

فالعدو الشرقي (الروسي والصيني) أشرس من العدو الغربي، وصِدَامه معنا مباشر، وقد تتســبب صَعَقاتــه في إيقاظِ الأمة وانتباهها، في حين العدو الغربي ذو عداوة مبطَّنة؛ ناعمة المظهر والملمس، سُــمِّيَّةُ الباطنِ والمخبَر، فخطورته أشــد، وها هي ثقافته المنحرفة تتسرب إلى أوطان الإسلام وتسري في بيوت المسلمين، ويتربى عليها كثير من الناشئة.

ففي الأمور شديدٌ وأشدُّ، وكبير وأكبر: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فمــن السياســة الشرعية دفعُ الأشد بالأخف، كما في حادثة بول الأعرابي في المسجد[١]، قال ابن تيمية: «فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفســاد الكثــير، ولا دفع أخف الضررين بتحصيــل أعظم الضررين، فــإن الشريعة جاءت بتحصيــل المصالــح وتكميلها، وتعطيل المفاســد وتقليلها بقــدر الإمكان، ومطلوبهــا ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً»[٢].

فالكفَّار لما كانــوا متفاوتين في درجة عداوتهم للمســلمين، لم يكن من الحكمة ولا من السياسة الشرعية جمعهم في خندقٍ واحد ومحاربتهم دفعة واحدة، فبغضُهم جميعاً ولاءٌ وبراء، واستعداؤهم جميعاً سياسة خرقاء، وتأجيل الاشتباك بأنواعه مع بعضهم سياسة شرعية حسناء ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢].

فندفع أشــدَّ الناس عــداوة لنا وخطــراً علينا بأخفهــم، ولا نصطــفِ مع عدوٍّ دائــم ضد عدو مؤقــت، ولا مع عدو أَحْقَــدَ ضد عدو حاقد، قال شــيخ الإســلام ابن تيمية: «وعلى هذا اســتقرت الشريعة بترجيح خــير الخيرين ودفع شر الشرين وترجيح الراجح من الخــير والشر المجتمعَين»[٣]، ومَدَحَ أبا الحسن الأشعري من جهة بيانه لِــما لم يبيِّنه غيره من فضائــح المعتزلة وتناقض أَقوالهم وفســادها، وتأليفه الردودَ عليهــم، ولو أنها على طريقة الكُلَّابِيَّة فهي أقرب للسنة من المعتزلة[٤].

وقــد يكون مــن المصلحة النــأي والابتعاد عن الســاحة برمتهــا، فلا نقف مع هــذا ولا مع ذاك، فليــس من منهج الإســلام زرع العــداوات وتكثير الأعداء ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧].

الثالث: العدل والرحمة:

البغض المتبــادل بيننا وبين الكفــار والعداوة المشتركة بيننا، لا تبيح لنا الاعتداء عليهم، ولا تمنع العــدل منَّا فيهــم ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، والشــنآن هو أشد البغض[٥]، كما لا تمنع الإقساط والبر بمن ســالَمنا ولم يحاربنا منهــم ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

الرابع: على المعتدي تدور الدوائر:

﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:

٤٣]، الرئيس الأوكراني يساند الكيان الصهيوني المحتل ضد مسلمي فلسطين، ويغرِّد أثناء ردِّ العدوان الصهيوني على غزة: «سماء إسرائيل مليئة بالصواريخ! بعض المدن مشتعلة، والعديد من القتلى والجرحى، لا يمكننا أن ننظر دون حزن ورحمة، من الضروري وقف التصعيد فوراً» وها هو اليوم تتساقط الصواريخ والقذائف الروسية على رأسه وفوق بلاده ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ليذوق بعضاً مما يعانيه المظلومون.

الخامس: بين الفرح والألم:

لا نفرح بمصائب الأمم بقدْر ما يعتصرنا الألم على موت الكافر على كفره، وندعو بالهداية لكل ضال، ونجتهد في إنقاذه، فالمحنة أحياناً باب للمنحة، فأسرى الحرب يُقادون مكرهين من مجتمعهم إلى مجتمع المسلمين ليروه على حقيقته، بعد إزالة الغشاوة والتضليل الممارَس عليهم في بلادهم، فلا يلبَثون أن يُسلِموا، ليسعدوا في الدنيا والآخرة[٦]، ولو نظرت لأئمة العلم لوجدت أكثرهم من القادمين وأبناء القادمين لبلاد الإسلام (بالسلاسل)!

السادس: عدم الأمن من مكر الله، والتوجس من آثار معصية الله:

فبين عشــية وضحاها تحولت أوكرانيا من بلد سياحة واستجمام إلى ميدان حرب ودمار ورعب، ولما فُتحَت قبرص «تنحى أبو الدرداء رضي الله عنه ثم احتبى بحمائل ســيفه فجعل يبكي، فأتاه جبير بن نفير فقال: ما يبكيــك يا أبا الدرداء؟ أتبكي في يوم أعز الله فيه الإســلام وأهله؟ وأذل فيه الكفر وأهله، فضرب على منكبيه ثم قال: ثكلتك أمك يا جبير بن نفير ما أهــون الخلق على الله إذا تركوا أمره بينا هي أمة قاهــرة ظاهرة على الناس لهم الملك حتى تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»[٧].

السابع: العنصرية الكامنة:

تكمن في تجاويف النفس البشرية بعضُ الأخلاق التي تخون صاحبها عند المحك، فتبرز عندما تُثار، لقد تَعَنْصَرَ الغرب من خلال نُخَبِه السياســية والإعلامية بصورة فجة مقيتة، برزت في قرارات ساستهم، برفض دخول غير أبناء جنســهم لأراضيهــم! وتكررت على ألسنة ساستهم وإعلامييهم وأقلام كُتَّابهم أن هؤلاء

اللاجئين صنف جديد! غير معهود! ليســوا أفغاناً ولا سوريين ولا عراقيين، ولا من الشمال الإفريقي. فهذا رئيــس وزراء بلغاريا يصرِّح هو وغيره بدهشــة بأن الأوكران النازحين لبلادهم بيض البشرة شُقر الشعور زُرق العيون، وأذكياء متعلمون، قدموا بسياراتهم... إلخ. نعــم! لم يقدموا على الأقــدام كلاجئي العرب، هاربــين من جحيم قنابلكم وقذائفكم! الأمتعةُ على ظهور الآباء، والأطفالُ على أيدي الأمهات!

يحق لهم الاستغراب فهم الذي يوقدون نيران الحروب بين الشــعوب ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْـحَرْبِ أَطْفَأَهَـا اللَّهُ وَيَسْـعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَـادًا وَاللَّهُ لا يُحِـبُّ الْـمُفْسِدِينَ﴾ [المائـدة: ٦٤]، ثــم يســتقبلون - إن اســتقبلوا - لاجئي حروبهم عمالةً رخيصةَ الأجر، (يمنحونهم) سقفاً وهامشاً متواضعاً من الحريات، لا يســمحون لهم بتجــاوزه، فإذا قاربــوا وصوله فالقمع والاستئساد، والشراســة والعناد، والتخلي عن كل الشــعارات الجوفاء والحريات المزعومة، التي طالما تغنَّوا بها دهراً، حتى لَتَقوم دولةٌ كاملة ولا تقعد على مجرد منديل تضعه امرأة على شعر رأســها! ﴿ذَلِـكَ بِأَنَّهُـمْ قَالُـوا لَيْـسَ عَلَيْنَـا فِي الأُمِّيِّـينَ سَـبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ أي لا ســبيل لأحد علينا

بعقــاب ولا بلوم إن فعلنا ما شــئنا بغير جنســنا وعنصرنا، وبخاصة العرب!

ليس مستغرباً أن تجد أحدَهم عضواً في جمعيات الرفــق بالحيوان التــي تُحاكِم من يدعــس قطّاً، ثم يركــب طائرته المحملــة بقنابل المــوت ومتفجرات الدمار ليلقيها عشــوائيّاً على مدينة مأهولة فيزهق آلاف الأرواح من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، والطيور و (القطط والكلاب) والدواب والحشرات... إلخ، ثــم يعود ليحتسي قهوته ويلعــب مع أطفاله! دون اكتراث أو حتى تأنيب ضمير.

يعلمنا ديننا العظيم الرقيَّ في الرحمة بالخلق، حتى ليحكي لنا عِتَاب الله لنبي من أنبيائه الكرام على قتل نمل بالحرق لمجرد إيذاء نملة منهن له[٨]!

وفي الحــروب يحرُم قتــل غير المقاتلين: كالنســاء والأطفال وكبار السن والمنقطعين للعبادة وعموم غــير المحاربــين، والحيوانــات، وتدمير المنشــآت والــزروع؛ فمن وصايا الرســول ﷺ للمجاهدين: «وَلاَ تَغْدرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً...»[٩].

فليس في الإســلام حرب مدن، يُباد فيها الأخضر واليابس؛ يُدمَّر فيها الإنس والجن والطير والحيوان

والنبات والمنشـــآت، ليس في حضارة الإسلام قنابل تُلقـــى فـــوق رؤوس المدنيـــين الآمنـــين في مدنهم وقراهـــم، ممن لا ناقةَ لهـــم في الحروب ولا جمل! لا كـــما يفعل الـــشرق والغرب الكافـــر منذ عُرفت القذائف والقنابل، وســـتبقى هيروشـــيما ونكازاكي اليابانيتان في الذاكرة التاريخية ما بقيت الدنيا، ولا يزال الغرب على هذا المنوال إلى اليوم.

ويتقـــدم الإســـلامُ ميثاقَ هيئـــة الأمم للاجئين ١٩٥١م قرونـــاً بتشريعـــات أرقـــى بمراحل، عجزت البشريـــة كلها إلى اليـــوم أن تُقارِبهـــا، قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَـدٌ مِّنَ الْـمُشْرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُـمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُـونَ﴾ [التوبـة: ٦] رُقـــيٌّ عجيب! في الإجارة دون تمييز على أســـاس ديـــن أو عرق أو لون، وفي الاجتهاد في إسماع الـمُجَار صوت الحق المحجوب عنه، وفي إبقائه في أمان المســـلم وعهدته وجواره، وفي إبلاغـــه مكاناً ينطلق منـــه إلى أهله آمناً على نفســـه وما معه من ممتلكات، بعد أن يفرغ من حاجتـــه، وعدم قذفه في أتون المخاوف مرة أخرى والتخلي عنه!

إنها لوحة من الرُّقِيِّ الباهر.

الثامن: صوت الفطرة:

هذا نداء الفطــرة يتصاعد من تحت الأطباق، ويعلو عنــد المحــك، ويظهر وقتَ الجِــد، فبعد محــاولات الطمس على مــدى عقود، يبرز صوت الفطرة من بين الأنقاض منادياً بأن ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، فيأذن الأوكران للنســاء بالرحيل، إذ ليس من شأنهن القتال ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْـحِلْيَةِ وَهُـوَ فِي الْـخِصَامِ غَيْـرُ مُبِـينٍ﴾ [الزخـرف: ١٨] ويُلزِمــون الرجــال بالبقاء والقتــال. وتنهار شعارات المســاواة بين الجنسين... تلك الشعارات الكبرى المضللة، تســقط في ظرف أيــام، وبِحَدث واحد، رغم ضخامة الآلة الإعلامية التي نســجتها، والتشريعات السياسية والاجتماعية التي دعمتها.

هنــاك تتهاوى الشــعارات المصادمــة للفطرة، فيصطــف (المتحولون) مع النســاء عــلى الحدود ليَخرُجوا، فيعيدونهم (لأصلهم) مع الرجال ليقاتلوا.

التاسع: تحسبهم جميعاً:

يظــن بعــض المتوهمين أن الكفــار على قلب واحد، وبينهم من الانســجام والوئــام ما لا تنفذ مــن خلاله الإبــرة! والواقع عكس ذلــك ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، قال الذهبي في حوادث سنة ٥٨٢هـ: «وفيها وقع الخلاف بين الفرنــج - لعنهــم الله - وتفرَّقــت كلمتهم، وكان في ذلك سعادة الإســلام»[١٠]، وهي خلافات تتكرر كثــيراً، وقَــلَّ أن تبرز لنا على الســاحة إلا إذا بلغ ســيلُها الزُّبى! وهذا من شــؤم نسيانهم أوامر الله تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

فللمســلمين أن يفرحــوا بضعــف العدو وبما يُضْعفــه، وبانتصــار الأخــف شرّاً والأقرب للحق، فقــد فرح الصحابة رضي الله عنهم بانتصار الروم الكتابيــين عــلى الفُرس المجــوس الوثنيين، كما في مُفْتَتَح سورة الروم[١١].

وعليهم رصدُ هذه الخلافات ودراستُها وإدارتُها وإذكاؤهـا بحكمة وحنكة، ناصرين أحياناً الأقرب لنا عـلى الأبعد عنـا، أو معتزلين الفئتـين أحياناً أخرى، تاركين الشر يطحن بعضُه بعضاً، ملتقطين أنفاسنا، ملتفتين لمصالحنا.

وخلافاتهم هذه وخصوماتهم ستستـمر معهم، ليختصـم الأتبـاع والمتبوعـون في الآخـرة، كما في الـمَعْلَم التالي:

العاشـر: تـبرؤ المتبوعـين على الباطل من الأتباع:

صورة دنوية نراها اليوم ونعايشـها، وسيكون لها أمثلة صارخة يوم التغابن، صُوَرٌ هناك موغلة في الرعـب، ففي القرآن المجيـد أكثر من عشرين موضعاً يتبرأ فيهـا المتَّبَوعون - يوم الحسرة - من الأتباع الرَّعاع، ولاتَ ساعةَ مندم ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وعلى رأس أولئـك إبليس الذي يقـوم خطيباً في أتباعه يوم القيامة[١٢].

لقد ألقى الغرب بحليفتهم أوكرانيا في فم الدب الروسي عـلى ضمانات بالدعـم والحفظ فلما جدَّ الجِدُّ تخلـوا عنها لتواجه مصيرها وحدَها ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، فما أعقلَه وما أَلَبَّهُ ذلـك الذي حَذِرَ وحَذَّرَ من الاتباع الأعمى، فالتاريخ يقطر من دماء المسـلمين، غدراً مـن أعدائهم حين وثقوا بهم، وما أفاعيل سـتالين بالمسـلمين في الحرب العالمية الثانية عنا ببعيد؛ إذ استخدمهم، فلما انتصر قضى عليهم.

الحـادي عشـر: مكاييـل الغـرب وموازينه:

في هـذه الحرب افتُضِـح التناقض لدى الغرب الكافـر، إذ يكيل بمكيالين؛ فالمهندس العسـكري يُمنـح لقب بطـل أوكرانيا وهو أعلا وسـام شرف أوكـراني ويضفـي عليـه الإعلام الغـربي أوصاف البطولة لأنه نفَّذ عملية انتحارية في أحد الجسور ليمنع القوات الروسية من العبور والتقدم.

في حـين يَصِم الإعـلام الغربي وصـداه العربي

المقاومين الفلسطينيين - مثلاً - بالإرهاب (حسب المفهوم الغربي)، فالغربي الأبيض بطل إن فعل ما فعـــل، فإن فعل فِعلَه عربي مســـلم فهو (إرهابي) يجب أن يعاقَب هو وبلده وقومه.

وأبـــو تريكة العـــربي المســـلم تعاقبـــه الفيفا بصرامة لرفعه شـــعار التنديـــد بالحرب على غزة، وخلطه السياســـة بالكرة! (زعموا)، في حين يرفع لاعبوا أوروبا اليوم شعارات التنديد بالحرب على أوكرانيا، وبكل اعتزاز وتأييد من الفيفا.

ويُجنُّ جنون العالم الغربي في ظرف أيام ليقاطع روســـيا ويحاصرهـــا ويندـــدد بها لمجـــرد اقتحامها لأطراف أوكرانيا، في حين تعيث روســـيا نفسُها في كلِّ سوريا أكثر من عشر سنوات، والغرب لا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً.

وحـــين يتطوع مســـلم لدفع عـــدوان على بلد مسلم يلاحقه الغرب بوصم الإرهاب (بمصطلحهم الغربي) في حين يعلن رئيس أوكرانيا نفسُه الترحيبَ بالمتطوعين للدفاع عـــن أوكرانيا، ويوصف هؤلاء المتوافدون بالشجاعة والشهامة.

الثاني عشر: الاعتماد على النفس وموارد البلاد:

فاعتماد بعض الدول في غذائها على غيرها بالِغُ الخطــر، والوضع ينذر بمجاعــات في بعض الدول المعتمِدة في اســتيراد القمح على روسيا وأوكرانيا، وانظــر خطة يوســف عليــه الســلام في الزراعة والادخار.

وبعــدُ... فهــذه بعض المعالم في هــذا الحدث الضخم، وفي جعبة القــراء الكرام كثير من المعالم والأمثلة، والمسلم ناظرٌ معتبِرٌ.

---

(١) انظر: صحيــح البخاري (٢٢٤٢/٥)، (٥٦٧٩)، وصحيح مســلم (٢٣٦/١)، (٢٨٥).

(٢) مجموع فتاوى شــيخ الإســلام ابن تيميــة (٣٤٣/٢٣)، وانظر قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز ابن عبدالسلام (٥٨/١).

(٣) الاستقامة (٤٣٩/١).

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية (١٩٢/٥).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٩ ، ٤٠).

(٦) ففي صحيح البخاري (١٠٩٦/٣)، (٢٨٤٨) «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل».

(٧) الزهد للإمام أحمد (١٤٢/١)، وســنن ســعيد بن منصور، الأثر (٢٦٦٠)، والعقوبات لابن أبي الدنيا (٤/١).